بـاب السـنّـة

يقدمه: فضيلة الشيخ محمد على عبد الرحيم

تكملة مقال: جمع القرآن وكتابته وترتيب سوره

كتابة عثمان رضى الله عنه للمصاحف وترتيب السور والآيات

أوضحنا فى المقال السابق كيفية نزول القرآن على رسول الله ﷺ، وكيف كتب، وقلنا إن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه انتقل إلى الرفيق الأعلى والقرآن كله محفوظ فى الصدور، ومكتوب فى العُسُب[1] واللخاف[2] والأكتاف[3]. وفى موقعة اليمامة فى أول عهد خليفة رسول الله ﷺ ارتد كثير من الأعراب، وخاصة فى نجد، ونشط مسيلمة الكذاب فى دعوته الباطلة، والتفّ حوله نحو مائة ألف من الأعراب والقبائل فى قلب الجزيرة العربية، فسيّر إليهم أبو بكر جيشا قوامه ثلاثة عشر ألفا، واحتدم القتال، حتى فتح الله على المسلمين، وقُتِل مسيلمة، وولى جيش الكفر الأدبار، ولكن قُتل يومئذ من القراء زهاء خمسمائة قارئ رضى الله عنهم. فأشار عمر على الصديق بأن يجمع القرآن على النحو الذى ذكرناه فى المقال السابق فى العدد الماضى من مجلة التوحيد، وكان لزيد بن ثابت القدح المعلّى فى جمع القرآن من العُسُب وغيرها، ومن صدور الصحابة الكرام. (وهذا الجمع يسمى جمع أبى بكر رضى الله عنه)

وفى مدة عثمان رضى الله عنه كثرت الفتوح، وانتشر القراء فى الأمصار، وقرأوا القرآن بلغاتهم ولهجاتهم على تعدّدها، وأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضا، فخشى عثمان رضى الله عنه تفاقم الأمر، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير،

١- العسب = جريد النخل المجرد من الخوص ٢- اللخاف = الحجارة الرقيقة ٣- الأكتاف عظام الكتف للحيوان

وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضى الله عنهم أجمعين، فنسخوا تلك الصحف التى جُمع فيها القرآن فى عهد أبى بكر، نسخوها فى مصحف واحد مرتب السور، واقتصر فيه من جميع اللغات (اللهجات) على لغة قريش التى نزل بها القرآن.

وإليكم ما روى فى السنة الصحيحة عن جمع عثمان وكتابته لكتاب الله تعالى:-

جمع عثمان

روى البخارى بسنده عن أبى شهاب أن أنس بن مالك حدّثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضى الله عنه، وكان يغازى مع أهل الشام فى فتح أرمينيا وأذربيجان (وهما بين البحر الأسود وبحر قزوين شمال جبال القوقاز) بالاشتراك مع أهل العراق.

فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين: أدرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .. فأرسل عثمان إلى حفصة[1] أن أرسلى إلينا بالصحف (وكانت عندها بعد موت أبى بكر) لننسخها ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان. فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوا فى المصاحف (بلا إعجام[2] وبلا شكل). وقال عثمان لزملاء زيد بن ثابت الثلاثة (وكلهم قرشيون) إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم ففعلوا.

ومعنى ذلك أنهم يتعين عليهم أن يكتبوه بالرسم الذى يوافق لغة قريش ولهجتها من نحو همز وغيره، فإنه نزل بها لأنها لغة الرسول ﷺ، وإنما أقرأ جبريل النبى ﷺ بغيرها من لغات العرب ولهجاتهم، رخصة ليسهل عليهم ترتيله بغير تكلف يشغل عن تدبره.

١- انظر المقال الأول فى عدد الشهر الماضى.   ٢- الإعجام : نقط الحروف.

وبعد أن نسخوا صحف أبى بكر فى المصاحف أرسل عثمان إلى كل أفق من الآفاق مصحفا مما نسخوا ليكون حجة، وأمر أن يُحرق ما سوى هذه المصاحف. ثم رد عثمان رضى الله عنه صحف أبى بكر إلى حفصة رضى الله عنها. فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها، فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها أخوها عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فحرقها لئلا يخالف المصاحف الأئمة التى بعثها عثمان إلى الأمصار.

الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان

الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان لكتاب الله: أن جمع أبى بكر كان من المحفوظ فى الصدور، ومن اللخاف والعُسُب. وأما جمع عثمان فكان نَسْخًا من جمع أبى بكر، وحمل عبء ذلك زيد بن ثابت رضى الله عنه. ولما استنسخ منه عثمان بواسطة الكتاب الأربعة، كانوا تحت إشراف زيد رضوان الله عنهم أجمعين.

ولهذا كتب الله تعالى لكتابه الحفظ من الضياع. وما يقال من أن عثمان كتب بخطه هذه المصاحف فغير صحيح. وإنما كتبها زيد بن ثابت وزملاؤه فى أيام عثمان، وتنسب إلى عثمان لأنه بأمره وإشارته، ثم قرئت على الصحابة بين يدى عثمان ثم نفذت إلى الآفاق.

ترتيب السور والآيات

ما قيل من أن عثمان بن عفان رضى الله عنه هو الذى رتب السور خطأ كبير، لما رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا من كان يكتب الوحى ويقول: (ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يُذكر فيها كذا وكذا) وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا. وكانت قصتها شبيهة بقصة الأنفال، فظننت (والمتكلم هو ابن عباس) أنها منها. فقُبض رسول الله ﷺ، ولم يبين أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما (يعنى لم يفصل بينهما) ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما فى السبع الطوال). اهـ أى البقرة وآل عمران ونحوهما.

ولأجل هذه الرواية ذهب البيهقى إلى أن ترتيب جمع السور توقيفى عن النبى ﷺ، إلا الأنفال وبراءة. ووافقه السيوطى.

ويُردّ عليه أنه لا يعقل أن يرتب النبى ﷺ جميع السور إلا الأنفال وبراءة. وقد صح عنه أنه ﷺ كان يتلو القرآن كله فى رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة كل عام. فلما كان العام الذى توفى فيه عارضه القرآن مرتين. فأين كان يضع هاتين السورتين فى قراءته على جبريل ؟ التحقيق أن وضْعَهما فى موضعهما توقيفى (من تعليق صاحب المنار على كتاب فضائل القرآن لابن كثير).

نوعية الخط الذى كتب به المصحف

كان الخط الذى يكتب به العرب فى مبدأ ظهور الإسلام هو الخط الأنبارى الحيرى (نسبة الى الحيرة) المسمى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازى، وهو أصل النسخ.

وكان يكتب به النزر اليسير من العرب عامة، وبضعة عشر من قريش خاصة، وبعض أفراد من أهل المدينة ومجاوريهم من اليهود.

فلما انتصر رسول الله ﷺ فى يوم (بدر) وأُسر منهم جماعة، كان منهم بعض الكتاب، فقبل الفداء من الأميين منهم، وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة، فانتشرت الكتابة بين المسلمين.

ولما فتح المسلمون الممالك، ومَصَّرُوا الأمصار، ونزلت جمهرة الكتاب منهم الكوفة، عُنُوا بتجويد الخط العربى وأشكاله، حتى صار خط أهل الكوفة ممتازا بشكله عن الخط الحجازى، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو الخط الكوفى.

وكان الصحابة وتابعوهم من بنى أمية يكتبون بلا إعجام ولا شكل (والإعجام وضع النقط على بعض الحروف ليتميّز بعضها عن بعض) وذلك اعتماداً منهم على معرفة المكتوب باللغة، واكتفائهم بالرمز فى قراءة اللفظ. فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم، وظهر اللحن، أشفق المسلمون على تحريف الكتاب الكريم. فوُضع النحو فى عهد على بن أبى طالب. وقسّم أبو الأسود الدؤلى[1] الكلمة إلى اسم وفعل

١- أبو الأسود الدؤلى من سادات التابعين، وكان من أكمل الرجال رأيا وأرجحهم عقلا توفى بالبصرة عام ٦٩ هـ عن ٨٥ عاما. (فنعم ما صنع رحمه الله تعالى.)

وحرف، واخترع الشكل، فجعل أبو الأسود علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة أسفله، والضمة نقطة من الجهة اليسرى. وجعل التنوين نقطتين، وكان ذلك في خلافة معاوية. فلله درّ أبي الأسود رحمه الله تعالى.

ولما رأى الحجاج كثرة اللحن أمر نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر بتعديل الإعجام، بجعل نقط الشكل بمداد مخالف لنقط الإعجام. حتى لا يختلط بنقط أستاذهما أبي الأسود وكان ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان. ثم شاع في الناس هذا الخط الكوفي بإعجامه وتشكيله، واستعمل في الدواوين لكتابة الرسائل والخراج، وتنوع الخط الكوفي حتى أربى على خمسين نوعا. واستعمل في المباني واللافتات والسكة (ضرب النقود)[1].

وفي أوائل عهد العباسيين ارتقى الخط، وكان منه خط الثلث، بعد أن مرّ بأطوار عدة يطول شرحها.

ثم جاء الوزير أبو محمد بن مُقْلَة المتوفى عام ٣٢٨ هـ وإليه ينتهي هندسة الخط العربي بفروعه نسخًا ورقعة وثلثا. وجاء الخليل بن أحمد، فوضع الضمة واوًا صغيرة تكتب فوق الحرف، والفتحة ألفا صغيرة، والكسرة ياء، والشدة رأس ش هكذا (س) والسكون رأس خاء هكذا (حـ)، وهمزة القطع رأس عين هكذا (عـ).

وظلت هذه القواعد معمولا بها حتى جاء الحافظ عثمان التركي في عهد سلاطين الدولة العثمانية. ومازال الخط يجري في مضماره للعناية بكتاب الله العزيز، حتى قبض على عنانه الكتّاب الترك العثمانيون، فحوّلوا بعض أنواعه وخاصة قلم الرقاع (الرقعة) إلى ما نعرفه الآن، وارتقوا بالخط العربي وأبدعوا حتى صار آية في الجمال. يشهد بذلك ما كتب على جدران المساجد، وما كتب به المصاحف بخط النسخ وخط الثلث إلى يومنا هذا. إلى أن جاء عهد مصطفى كمال (أتاتورك) عام ١٣٤٠ هـ ١٩٢٢م فحوّل الدولة من إسلامية إلى علمانية واستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية، وسنّ هذه السنة السيئة فعليه وزرها ووزر من أيده وشجعه من الملحدين.

١- في لسان العرب لابن منظور مادة (سكك): السكة = حديدة قد كتب عليها يضرب عليها الدراهم وهي المنقوشة.

وظهر من الأتراك إبّان أوج الدولة العثمانية: الحافظ عثمان (إليه يرجع الفضل فى الإبداع الحديث بالخط العربى) وذلك بما كتبه من نسخ المصاحف التى بلغت ٢٥ مصحفا. وحاكاه من لا يُحصى من المعلمين والكتاب. دع عنك ما يشاهد فى جدران المساجد من البراعة والجمال فى الخط العربى. فذلك من البدع التى نهى عنها الإسلام من حيث زخرفة المساجد. ولكن أثر الترك واضح فى كتابة المصاحف، كما هو محفوظ بجامع أبا صوفيا بالآستانة (استانبول)، وبدار الكتب المصرية، وبخزانة المفضال نور الدين بك مصطفى بشارع درب الجماميز بالقاهرة، حيث يوجد جملة رقاع بخطه الجميل.

والأساس فى تطوير الخط العربى أن تكتب به المصاحف، فتسهل القراءة فيها، بعد أن أخذت طابعها الجميل، واستوفت ما يعين على القراءة من إعجام الحروف وتشكيلها كما أسلفنا، ثم كثر التأليف ودُوِّنت الكتب مميزة حروفها بالإعجام، إلى أن اخترعت المطابع، فصنعت الحروف العربية على نحو ما وضعه ابن مقلة رحمه الله تعالى، بعد تهذيبها وتحسينها بما صنعه الأتراك، بالارتقاء بالخط العربى، حتى صار آية فى الجمال.

وللأسف الشديد جاء عهد الكمبيوتر فشوّه الخط العربى، وقبُح شكله، كما نراه حاليا فى عناوين الصحف والمجلات والكتب المطبوعة حديثا .. حتى فقد الخط جماله، وعجز القارئ الماهر عن قراءته. فهل نجد من نجْدة تنقذ الخط العربى الجميل من هذه الأوحال، التى أدخلها صانعو الكمبيوتر. ولكن نحمد الله تعالى أن هذا التشويه لم يمتد إلى كتاب الله الكريم. فظل مصونا بعناية الله، مكتوبا بآخر حال وصل إليه من الحسن والجمال. ولكن مسئولية تشويه الخط العربى تقع على عاتق مجمع اللغة العربية، فعليه أن يهب للدفاع عن التراث الإسلامى، ممثلا فى جمال الخط الذى أبلى علماء الخط بلاء حسنا فى الانتقال من الحسن إلى الأحسن كما فعل ابن مقلة والحافظ عثمان وغيرهما.

وإنى والله يعلم كم تأخذنى الحسرات حينما أرى العناوين فى الكتب والصحف تأخذ حروفها أشكال العقارب، مما يصعب على الكبير والصغير الناشئ قراءتها .. فهل من مجيب ؟ والله من وراء القصد

محمد على عبد الرحيم